

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرن خلاف ما يبطنون يقولون قولاً بألسنتهم { آمنوا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك } أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم فيقولون ما لا يفعلون ولهذا قال تعالى : { وما أولئك بالمؤمنين } وقوله تعالى : { وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم } الآية أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه وهذه كقوله تعالى : { ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً } وفي الطبراني من حديث روح بن عطاء عن أبي ميمونة عن أبيه عن الحسن عن سمرة مرفوعاً [من دعي إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لا حق له] .

وقوله تعالى : { وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين } أي وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله { مذعنين } وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليروج باطله ثم فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق بل لأنه موافق لهواه ولهذا لما خالف الحق قصده عدل عنه إلى غيره ولهذا قال تعالى : { أفي قلوبهم مرض } الآية يعني لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها أو قد عرض لها شك في الدين أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم وأياً ما كان فهو كفر محض والله عليم بكل منهم وما هو منطوق عليه من هذه الصفات .

وقوله تعالى : { بل أولئك هم الظالمون } أي بل هم الظالمون الفاجرون والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور تعالى الله ورسوله عن ذلك قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا مبارك حدثنا الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محق أذعن وعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم سيقضي له بالحق وإذا أراد أن يظلم فدعي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أعرض وقال : انطلق إلى فلان فأنزل الله هذه الآية فقال النبي صلى الله عليه وسلم [من كان بينه وبين أخيه شيء فدعي إلى حكم من أحكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لا حق له] وهذا حديث غريب وهو مرسل .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ورسوله الذين لا يبغون ديناً سوى كتاب

اﻟﻮﺳﻨﺔ ﺭﺳﻮﻟﻪ ﻓﻘﺎﻝ } ﺇﻧﻤﺎ ﻛﺎﻥ ﻗﻮﻝ ﺍﻟﻤﺆﻣﻨﯩﻦ ﺇﺫﺍ ﺩﻋﻮﺍ ﺇﻟﻰ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻟﯩﺤﻜﻢ ﺑﯩﻨﻬﻢ ﺃﻥ ﻳﻘﻮﻟﻮﺍ ﺳﻤﻌﻨﺎ ﻭﺃﻃﻌﻨﺎ } ﺃﻱ ﺳﻤﻌﺎ ﻭﭘﻄﺎﻋﺔ ﻭﻟﻬﺬﺍ ﻭﺼﻔﻬﻢ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﺑﺎﻟﻔﻼﺡ ﻭﻫﻮ ﻧﯩﻞ ﺍﻟﻤﻄﻠﻮﺏ ﻭﺍﻟﺴﻼﻣﺔ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﺮﻫﻮﺏ ﻓﻘﺎﻝ ﺗﻌﺎﻟﻰ : { ﻭﺃﻭﻟﺌﻚ ﻫﻢ ﺍﻟﻤﻔﻠﺤﻮﻥ } ﻭﻗﺎﻝ ﻗﺘﺎﺩﺓ ﻓﯩﻬﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ } ﺃﻥ ﻳﻘﻮﻟﻮﺍ ﺳﻤﻌﻨﺎ ﻭﺃﻃﻌﻨﺎ } ﺫﻛﺮ ﻟﻨﺎ ﺃﻥ ﻋﺒﺎﺩﺓ ﺑﯩﻦ ﺍﻟﺴﺎﻣﺖ ﻭﻛﺎﻥ ﻋﻘﺒﯩﺎ ﺑﺪﺭﯨﺎ ﺃﺣﺪ ﻧﻘﺒﺎﺀ ﺍﻟﺄﻧﺴﺎﺭ ﺃﻧﻪ ﻟﻤﺎ ﺣﻀﺮﻩ ﺍﻟﻤﻮﺕ ﻗﺎﻝ ﻟﺎﺑﻦ ﺃﺧﯩﻪ ﺟﻨﺎﺩﺓ ﺑﯩﻦ ﺃﺑﻰ ﺃﻣﯩﻴﺔ : ﺃﻻ ﺃﻧﺒﯩﻚ ﺑﻤﺎﺫﺍ ﻋﻠﯩﻚ ﻭﻣﺎﺫﺍ ﻟﻚ ؟ ﻗﺎﻝ : ﺑﻠﻰ ﻗﺎﻝ : ﻓﯩﻥ ﻋﻠﯩﻚ ﺍﻟﺴﻤﻊ ﻭﺍﻟﻄﺎﻋﺔ ﻓﯩﻲ ﻋﺴﺮﻙ ﻭﻳﺴﺮﻙ ﻭﻣﻨﺸﻄﻚ ﻭﻣﻜﺮﻫﻚ ﻭﺃﺋﺮﺓ ﻋﻠﯩﻚ ﻭﻋﻠﯩﻚ ﺃﻥ ﺗﻘﯩﻢ ﻟﺴﺎﻧﻚ ﺑﺎﻟﻌﺪﻝ ﻭﺃﻥ ﻻ ﺗﻨﺎﺯﻉ ﺍﻟﺄﻣﺮ ﺃﻫﻠﻪ ﺇﻻ ﺃﻥ ﻳﺎﻣﺮﻭﻙ ﺑﻤﻌﺼﯩﻴﺔ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﺑﻮﺍﺣﺎ ﻓﻤﺎ ﺃﻣﺮﺕ ﺑﻪ ﻣﻦ ﺷﯩﻲ ﻳﺨﺎﻟﻒ ﻛﺘﺎﺏ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻓﺎﺗﺒﻊ ﻛﺘﺎﺏ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ .

ﻭﻗﺎﻝ ﻗﺘﺎﺩﺓ : ﺫﻛﺮ ﻟﻨﺎ ﺃﻥ ﺃﺑﺎ ﺍﻟﺪﺭﺩﺍﺀ ﻗﺎﻝ : ﻻ ﺇﺳﻼﻡ ﺇﻻ ﺑﻄﺎﻋﺔ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻭﻻ ﺧﯩﺮ ﺇﻻ ﻓﯩﻲ ﺟﻤﺎﻋﺔ ﻭﺍﻟﻨﺼﯩﺤﺔ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻭﻟﻠﺨﻠﯩﻔﺔ ﻭﻟﻠﻤﺆﻣﻨﯩﻦ ﻋﺎﻣﺔ ﻗﺎﻝ : ﻭﻗﺪ ﺫﻛﺮ ﻟﻨﺎ ﺃﻥ ﻋﻤﺮ ﺑﯩﻦ ﺍﻟﺨﻄﺎﺏ ﺑﻪ ﻛﺎﻥ ﻳﻘﻮﻝ : ﻋﺮﻭﺓ ﺇﺳﻼﻡ ﺷﻬﺎﺩﺓ ﺃﻥ ﻻ ﺇﻟﻪ ﺇﻻ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻭﺇﻗﺎﻡ ﺍﻟﺼﻼﺓ ﻭﺇﯨﺘﺎﺀ ﺍﻟﺰﻛﺎﺓ ﻭﺍﻟﻄﺎﻋﺔ ﻟﻤﻦ ﻭﻻﻩ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﺃﻣﺮ ﺍﻟﻤﺴﻠﯩﻤﯩﻦ ﺭﻭﺍﻩ ﺍﺑﻦ ﺃﺑﻰ ﺣﺎﺗﻢ ﻭﺍﻟﺄﺣﺎﺩﯨﺚ ﻭﺍﻻﺋﺎﺭ ﻓﯩﻲ ﻭﺟﻮﺏ ﺍﻟﻄﺎﻋﺔ ﻟﻜﺘﺎﺏ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻭﺳﻨﺔ ﺭﺳﻮﻟﻪ ﻭﻟﻠﺨﻠﻔﺎﺀ ﺍﻟﺮﺍﺷﺪﯨﻦ ﻭﺍﻟﺄﺋﻤﺔ ﺇﺫﺍ ﺃﻣﺮﻭﺍ ﺑﻄﺎﻋﺔ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻛﺘﯩﺮ ﺟﺪﺍ ﺃﻛﺘﺮ ﻣﻦ ﺃﻥ ﺗﺤﺼﺮ ﻓﯩﻲ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻤﻜﺎﻥ .

ﻭﻗﻮﻟﻪ } ﻭﻣﻦ ﻳﻄﻊ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻭﺭﺳﻮﻟﻪ } ﺃﻱ ﻓﯩﻤﺎ ﺃﻣﺮﺍﻩ ﺑﻪ ﻭﺗﺮﻙ ﻣﺎ ﻧﻬﯩﺎﻩ ﻋﻨﻪ ﻭﻳﺨﺶ ﺍﻟﻮﺳﻮﻟﻪ ﻓﯩﻤﺎ ﻣﻀﻰ ﻣﻦ ﺫﻧﻮﺑﻪ ﻭﻳﺘﻘﻪ ﻓﯩﻤﺎ ﻳﺴﺘﻘﺒﻞ ﻭﻗﻮﻟﻪ } ﻓﺂﻭﻟﺌﻚ ﻫﻢ ﺍﻟﻔﺎﺋﺰﻭﻥ } ﻳﻌﻨﻰ ﺍﻟﺬﯨﻦ ﻓﺎﺯﻭﺍ ﺑﻜﻞ ﺧﯩﺮ ﻭﺃﻣﻨﻮﺍ ﻣﻦ ﻛﻞ ﺷﺮ ﻓﯩﻲ ﺍﻟﺪﻧﯩﺎ ﻭﺍﻻﺧﺮﺓ